كلمة في حفلة تكريم
الدكتور عبد اللّه ركيبي

بقلم : أبو العيد دودو
- جامعة الجزائر

الواقع أنني لا أريد أن أتحدث في كلمتي القصيرة هذه عن صديقي الدكتور عبد الله ركيبي لا بصفته رائداً من رواد القصة أو المسرحية ، على قلة ما كتب في هذين المجالين ، ولا بصفته ناقداً ودارساً وباحثاً أديباً ، فهناك ولا شك من هو أولى مني بدراسة هذه الميادين واصدار أحكام عليها تتسم بالصحة والانصاف ، على أن هذا لا يمنعني من القول أن «القصة القصيرة» و «الفرانكفونية مشرقاً ومغرباً» يشكلان قمتين في أعمال الدكتور عبد الله ركيبي الأدبية والفكرية ، محتوى وريادة ولسوف يثبت مستقبل العربية ذلك في وقت قريب أو بعيد على المستويين العام والخاص .

أريد أن أتحدث عن الدكتور ركيبي من جانب آخر ، من جانب لا يخطر على بال أي شخص من الحاضرين على الاطلاق ، إما لأنه لا يتصور وقوع شيء من هذا النوع ، وإما لأنه لا يملك ما أملكه أنا عن الدكتور ركيبي . والحق أنني لا أريد أن أحدثكم عنه ، وإنما أريد أن يحدثكم هو على لساني .. يحدثكم عن همومه وأحزانه ، عن أفكاره ومبادئه ، عن تطلعاته وآماله . يحدثكم عن ماض لا يزال حاضراً .. لا يخلو من كثافة ! وقد كان هذا الماضي خاصا ، وأريده أن يكون الآن عاماً على نحو ما كان خاصاً بي وأريد أن يشترك الغير معي فيه ... ومنهم الدكتور ركيبي نفسه ، إن كان قد نسى ما كتبه لي في يوم من الأيام . لعل بعضها بعيد نسبياً ، هذا اللف والدوران يعني أنني سأفسح المجال له ليحدثكم من خلال رسائله الي في فترات مختلفة .

أجـل من خـلال رسـائلـه ، ولعلكم تـوافقـونني على أن الأديب كيفما كانت طبيعـة ابـداعـه يعرف من حميياته ومن يومياته وصداقاته ، من وجدانيـاتـه وهمسـاتـه وعفويـاتـه ومن كل مـا يسجله لنفسه أولاً ليفه وصديقه بطريقة خاصة ، أكثر مما يعرف من خلال دراساته وابداعاته ، التي ينشرهـا على النـاس . هـذا يعني مرة أخرى أنني لا فضـل لي فيا سـأقـدمـه .. بـدايـة على الأقل .. الا من حيث الصوت الموصل ، أي الصـوت الـذي ينقـل كلمـات الصـديـق الحميم ومن حيث التمهيد والتعليق أو استخلاص فكرة هنا أو هناك . وحبـذا لوقـارن القـارىء والمستمع بين أفكار الدكتور ركيبي في أيامنا الحاضرة وبين أفكاره قبل ما يزيد عن عشرين سنة ، فمن شـأن هذه المقارنة أن تثبت له مدى الاصالة والاخلاص والوفاء والثبات على المبـدأ والـدقـة والنزاهـة عنده . وهذا في كل مـا يتصل بـاللغـة والوطن والنضـال والثورة والعروبـة والإسلام والتـاريخ والتقاليد القومية والدينية وغيرها من القيم .

بدأت المراسلة بين الدكتور ركيبي وبيني عـام 1963 ، واستمرت الى آخر اقـامـة لـه بـالشرق العربي ، ولم نتعارف الا بعـد مرور حوالي خمس سنوات أو أكثر على المراسلـة الأولى ، فقـد كان هو في القاهرة وأنا في فيينا آنئذ ، وسأقتصر بطبيعة الحال على اقتباسات قليلة . وهـذا مقتطف بتاريخ 1966/1/23 ، يبين مدى حرص صديقي على خدمة هذا الوطن . اخلاصاً لـه ووفـاء . يقول فيها :

«كلما سنحت الفرصة لنتحـدث عنـك وعن انتـاجـك الثقـافي تمنينـا جميعـاً أن تكون معنـا تشاركنا قلقنا .. نضالنا عملنا .. حياتنا بكل ما فيها من لـذة وألم لأنـه من غير المعقول أبـدا أن تبقى بعيدا عن الوطن وهو في أشد الحاجة اليك والى أمثالك من الشبان المثقفين المخلصين الذين يمكنهم أن يقـدموا لـه الكثير . وأنـه لمن العـار حقـاً ألا يتفطن المسؤولون الى مثل هـذا الوضع الذي يعيش فيه بعض مثقفينا في الخارج .. فأنا أدرك أن الوقت الذي يقدر فيـه مجهود المثقف مازال بعيداً .. وما زال البعض ينظر بحذر وشك وأحيانا باستخفاف الى المثقف الحقيقي أو مـا اعتدنا أن نطلق عليه .. المثقف الثوري» .

هـذا ولعلكم توافقـوني أيضـاً على أننـا لـو نحن طلبنـا من الـدكتـور ركيبي أن يشخص لنـا جوانب من حياتنا الثقافية ، لتضمن جوابه ، ولو تم ذلـك بشكل مغـاير وبـاضـافـات يقتضيهـا الظرف الراهن بطبيعـة الحـال - لتضمن جـوابـه هـذه الأفكار الصريحـة - والصراحـة ميزة عنـد الـدكتور ركيبي كـذلـك - التي وردت في نفس الرسـالـة ، التي كتبهـا الي قبـل مـا يقرب من ثلاثين سنة ، فقد جاء فيها :

«وإنني بقدر ما أكره الثرثرة في الأدب أكره الاستعلاء والاستاذية الفارغة والادعاء الأجوف ... هذه الصفات والظواهر التي انتشرت عندنا الآن كالوباء ... فالثقافة هنا والأدب يعيشان على الدعوى والاستعلاء ، وكل من يمسك القلم ويخط به سطوراً ينشرها يظن أنه قد أصبح كاتباً كبيراً وأديباً لامعاً ممتازاً على الناس أن يغضوا الطرف له ولأدبه وعلمه وثقافته والا فالويل لهم لأنهم لا يقدرون المجهودات ولا يعترفون بالنبوغ والعبقرية . هذه هي حياتنا التي نعيشها اليوم ... ان الانتهازية في الأدب والثقافة قد بلغت حداً يصعب عليك بسببه أن تفرق بين الأصيل والزائف ، بين الصدق والكذب . بين العمق والسطحية .. بين الأصالة والضحالة .. الى آخر المتناقضات التي اختلطت وامتزجت وأصبحت شيئاً واحداً .. الأمر الذي جعل القيم والمثل تنهار بشكل فاضح وبصورة مخجلة حقاً .. اننا نعاني من التطفل على الأدب والفكر .. نعاني من الادعاء والغرور .. من السفسطة ومن عقد كثيرة انتشرت واستحكمت وأصبح علاجها صعبا للغاية .. ولولا أننا نعثر بين الحين والآخر على بعض النماذج التي تشد من أزرنا وتقوي من ايماننا بالحق والخير والصدق لأصحبت حياتنا جحيما لا يطاق» .

واخلاص الدكتور ركيبي لوطنه وغيرته عليه ينسحبان على علاقاته مع الناس ومواقفه منهم . بحيث يمكن أن تعاديه شخصياً ، إن أنت وجدت ما يدعوك الى ذلك ، ولكنك ستبقى مع ذلك صديقه ما دمت تؤمن بالمبادىء التي يؤمن بها وتقدسها كما يقدسها هو ويحرص على ابراز قدسيتها في نفسه وفي وجدانه كلما تهيأت له الفرصة لذلك واذا كانت الأشياء والظروف تتغير مع توالي الأيام والعصور ، ويتغير معها الإنسان ، فإن المقدسات لا يطرأ عليها أي تغيير عند الوطني الأصيل ، لأنها تمثل ما لوجوده من ثوابت ، ومقومات ، ورموز فكرية وثقافية . وحب الرموز الثقافية مقوم من مقومات الوطنية العريقة . كنت قد كتبت في السنة نفسها ، أي في سنة 1966 قصة قصيرة وأهديتها الى روح الشهيد أحمد رضا حوحو ، فكتب الي بتاريخ 1966/3/27 ما يلي :

«أخي ، اني أكتب إليك الآن وأمامي قصتك الأخيرة - الغيم - التي نشرت بالمجاهد أمس هدية منك الى ذكرى الشهيد حوحو .. وكم سعدت وأنا أقرؤها مهداة الى فقيد الأدب والفن ، الذي اشتشهد من أجل الوطن ونسيه الكثير ، ولكنك وأنت تقدر القيم الأدبية والنضالية لم تنس هذا الرائد الذي له في نفوسنا كل التقدير والإعتزاز» .

ويتحدث فيها بعدئذ عن الأصدقاء كما يصورهم له حبه لكمل مقومات وطنه ، فيسجل ما يلي :

«ليس هناك أجمل ولا أمتع من لقاء الأصدقاء المخلصين المؤمنين بوطنهم وعروبتهم على أرض المحبة والفن الأصيل .. هذه المعاني ، التي نفتقدها في أجواء اختلطت فيها القيم وانحرفت المفاهيم السلمية» .

ومثل هذه الصداقة مقرونة عنده بالوفاء .. وهو مبدأ مقدس أيضا ومقوم من مقومات الشخصية الفردية . ونضاله من أجل الوفاء جزء من نضاله العام في مختلف المجالات فاستمعوا الى نضاله من أجل ذلك أيضاً ، جاء في رسالته الي بتاريخ 1966/1/23 قوله :

«كان من المفروض أن أكاتبك أيام كنت بالقاهرة ، ولكن حدثت ظروف وتغيرت أحوال ، ودخلت الحياة التي يقال عنها الحياة العملية ... واذا بي أجد نفسي في دوامة وفي حياة من نوع يختلف عن النوع الذي كنت أعيشه .. دخلت في دوامة ، ولكنها ليست صافية على أية حال وانما هي دوامة أخذتني الى أعماق الحياة .. هذه الحياة التي تنزعنا من نفوسنا ومن ذواتنا لترمي بنا فوق أمواجها المضطربة العابثة .. وأسوأ ما في الحياة أن تسرق منا أيامنا ولحظاتنا وذواتنا فتنسينا واجباتنا وأول واجب فيما أومن هو الوفاء للأصدقاء في الحياة أوبعدْها ... ومن ثم فكلما تأخرت عنك أزداد سخطي على الحياة ، فأنا أومن بأن الحياة التي لاعطاء فيها ولا وفاء أفضل منها الموت بكثير» .

ومما كان يدخل ضمن همومه النضالية محاولته تعرية الوضع الثقافي القائم كما يجب ، وذلك في كتاباته الخاصة والعامة فاستمعوا اليه معرة أخرى وهو ينطق بلسان اليوم .. وكأنه كان آنئذ يسجل حالة دائمة . كتب الي في الشهر الثالث من السنة نفسها يقول :

«أما الصحف فهي تتابع نشر بعض المقالات والقصص لكتاب ناشئين نعلق عليهم أملا طيباً .. بيد أن الاستجابة لما يكتب أو يؤلف لا أثر لها اطلاقاً فالناس يتلقون الانتاج ولا ينفعلون به أصلاً .. واذا انفعلوا فلا يزيد انفعالهم عن كلمة استحسان أو استهجان بالمقاهي التي يجسلون فيها للثرثرة وقتل الوقت ... وهذه بليتنا إنك تطلب من أيهم أن يعلق على ما يصدر أو يكتب أو يؤلف ولكنك تسمع اعتذارات واهية وغمغمات مبهمة !» .

وكان يشعر في بعض الأحيان ، وخاصة بعد الانتهاء من عمل ماأو من تشخيص وضع قائم – كان يشعر بالمقت والكراهية للكتابة ، ويصبح برما باللفظة والكلمة والسطر والحرف – شأنه شأن كل مبدع ، والنقد ابداع بشكل ما – ويتساءل في ألم شديد . ما جدوى الكتابة ، ما جدوع البحث والدراسة ، ما جدوى كتابة القصص والمقالات .. بل ما جدوى الفكر نفسه في وضع لا يفكر .. لا يؤمن بهمّ الفكر والعلم الا أنه لا يلبث أن يعود الى نفسه . ويطمئن الى

سلامة وجدانه ، فيصرخ من أعماقه : «ان هذا قدرنا لا نحيد عنه ؟» فالوطن لا يكون الا بنا نحن مفكريه ورجاله .

وقد تعود الدكتور ركيبي على أن يعتبر كل ما يتصل بالوطن هما من همومه الخاصة ، فيحزن له حزناً كبيراً ، ويقلق بسببه قلقاً ممضًّا ، فعندما امتدت يد الاغتيال الى مجلة المجاهد الثقافي ، كتبت إليه رسالة أعبر له فيها عن عذابي وحزني من جراء ما حل بالمجلة ، كتب الي بتاريخ 1971/3/1 يقول :

أنَّ توقف أي مشروع ثقافي أو أدبي مثل المجلة يزيد من قلقي معك . وأرجو أن اسمع قريباً بأن شيئاً ساراً هو الذي وقع وبأن المجلة ستبقى وتضاف إليها أخرى . أما إذا كان هناك غير هذا فإنها المأساة . مأساة الثقافة والأدب عندنا ، وهي حالة يبدو أنها مستحكمة عندنا الى درجة أن تغييرها ضرب من المستحيل ، فكل شيء يتغير في بلادنا إلا صورة الثقافة عندنا فهي كذب وتقهقر» .

وكان همّ الوطن يعيش معه في كل مكان يقيم فيه ، فيدرس ويتعلم . ويطالع ليقارن ، ويوجه . فعندما ذهب الى انجلترا لتعلم اللغة الانجليزية ، كتب إلي بتاريخ 1979/10/11 يقول :

«... ويبدو أن هناك نوعاً من الناس مثلنا يعيش لما بعد الواقع ، بينما غيرنا يعيش لهاذا الواقع ، فقراءته للغة هي فقط للحديث ، للاستعمال العادي ليحقق غرضه ويقضي مآربه ، الآنية ، أما نحن فلكي نعرف ما يجري في هذا الواقع الذي يصيغه أمثال هؤلاء الناس بل يحبونه ويعيشونه بالفعل .. المهم كل وما خلق له ...» ولعلكم تلاحظون ما في الجملة الأخيرة من قلق وهم ومرارة .

وينطوي حبه للوطن على حبه للغته ، والاعتزاز بها مثلما هو الأمر عند كل مواطن أصيل في أي جزء من أجزاء العالم ، ولهذا يواصل حديثه في هذا الاطار فيقول في الرسالة نفسها :

«واشتريت مذياعا لأستمع الى الأنجليزية حتى أتعود عليها ... فقد تعودت طيلة حياتي الاستماع والحديث والكتابة بالعربية الجميلة ، ثم أتيع لي في صغري أن أقرأ الفرنسية لسنوات وتركتها بعد ذلك ، والآن أعود الى لغة قوية ضخمة . أدير لساني بها وأحاور فكري لأن يفكر بها .. ومن الصعب أن يفكر الإنسان بلغة غير لغته القومية تفكيراً كاملاً كما يفكر أصحابها .. وهذا ما أحس به الآن .. ان لغتنا أجمل لغة في العالم ولعلها أكثر اللغات فصاحة ورونقا» . وهذا كلام لا يقوله الا مواطن أحب وطنه ولغته وقيمه أعمق الحب وأصدقه .

هذا وللدكتور ركيبي بعد مزايا كثيرة قد تكون كلها مرتبطة بعضها ببعض ، ولعل أبرزها ميزتان ، أحداهما خارجية والأخرى داخلية ، وتتمثل الخارجية في أناقة المظهر وما يتبعه من رزانة واتزان .. سلوكاً ومعاشرة ، بينما تتمثل الميزة الداخلية في استقامة الحس وما يتبعه من رهافة ورقة ولكن هذه الميزة الداخلية تتحول الى ثورة عارمة ، وغضبة مضرية ... وهذا من إبائه ورفضه للظلم والاعتداء على المقدسات كلما أهينت كرامته أو مبادئه التي يؤمن بها ايمانا صلباً ، وثورته تعني أنه «يغسل» المجترىء عليه غسلة محترمة يفقد معها قدرته على الكلام والحوار .. وينسى حتى الغمغمة ! وكم حضرت له من غسلة من هذا النوع ... شعر مبتلوها بفجيعة الصمت رغم الشهرة والمركز ! واللفظة من استعمالات الدكتور ركيبي نفسه .

هذا ما أردت أن أقاسم الدكتور ركيبي فيه ... كلمات من عنده وكلمات قصار من عندي . وكلماتي صادقة مخلصة أيضاً .. لم أكتبها اتقاء للغسلة والغمغمة .

. 1993/1/15

ملاحظة : ألقيت هذه الكلمة بتاريخ 1993/01/17
بقاعة المحاضرات بالنفق الجامعي